صُورَةُ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ في المُتَخَيَّلِ الجَمْعِيِّ
في مِرْآةِ طَرائفِ اللُّغَوِيِّينَ والنَّحْوِيِّينَ

The image of Arabic language specialists in the collective imagination as mirrored in the jokes concerning Arab linguists and grammarians

- كيان أحمد حازم الزُّبيديّ، أُستاذ مُساعد دكتور في قسم اللغة العربيَّة–كلّيّة الآداب–جامعة بغداد، التَّخصُّصُ الدَّقيق: اللغة (علم الدَّلالة)، dr.keyan@yahoo.com

- **Received date: 26/09/2018**
- **Accepted date: 10/11/2018**
- **Publication date: 20 /12/2018**

المُلَخَّص: لِكُلِّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ ذَخيرَتُها وخَزينُها مِن المَوروثاتِ التي تُشَكِّلُ ذاكِرَتَها الجَمعِيَّةَ عبرَ التَّأريخِ، والتي تُفصِحُ عَن مَكنونِ مَواقِفِها مِن الأَشياءِ وتَشي بِحَقيقَةِ تَصَوُّراتِها لِلأُمورِ. ومِن مُودَعاتِ هذهِ الذَّخيرَةِ وهذا الخَزينِ الطَّرائفُ على اختِلافِ مَن تُنسَبُ إليهِم وتَنَوُّعِهِم. وقَد اختَرْتُ في بَحثي هذا مِن مُستَودَعاتِ الطَّرائفِ تِلكَ التي مِحوَرُها وقُطبُ الرَّحَى فيها أَهلُ العَرَبِيَّةِ مِن لُغَوِيِّينَ مُغرَمِينَ بِغَرائبِ اللُّغَةِ وشُذوذاتِها، ونَحْوِيِّينَ مُولَعِينَ بِإعمالِ الإعرابِ وإشهارِهِ، لأَنظُرَ في ما تَنطَوي عليهِ هذهِ الطَّرائفُ مِن لَفَتاتٍ بينَ سُطورِها وفَلَتاتٍ وَسْطَ مَرويّاتِها تَنُمُّ على نَظرَةِ النّاسِ إلى أَهلِ العربيَّةِ عبرَ الأَزمِنَةِ وتَقويمِهِم لأَدائِهِم في مُجتَمَعاتِهِم، بِما يُشَكِّلُ بِمَجموعِهِ صُورَةً لِمُتَخَيَّلٍ جَمعِيٍّ في ضَميرِ النّاسِ وذاكِرَتِهِم بِشَأنِ أَهلِ العربيَّةِ مِن لُغَوِيِّينَ ونَحْوِيِّينَ.

الكلمات المفتاحية: أَهلُ العَرَبيَّة، المُتَخَيَّلُ الجَمعِيّ، طَرائفُ اللُّغَوِيِّينَ والنَّحوِيِّينَ.

Abstract: Every nation has its own heritage which forms its collective memory, and reveals its attitudes toward things and conceptions of how matters are. Jokes constitute some of what that heritage consists of, no matter to whom they are related.

I have singled out for the purposes of my paper here those jokes whose heroes are the Arab linguists and grammarians.

The importance of this study lies in that it sheds lights on the image people draw in their collective imagination of the ones who are supposed to contribute to the development of their society and to promote people's awareness of their identity.
Key words: Arabic language specialists, jokes Concerning Arab linguists and grammarians, the collective imagination.

المقدِّمَة:

يُسَلِّطُ هذا البَحثُ الأَضواءَ على الصُّورَةِ التي يَرسُمُها النّاسُ في مُخَيِّلَتِهِم لأُناسٍ يُفتَرَضُ أَن يُسهِمَ نَشاطُهُم في تَنمِيَةِ مُجتَمَعِهِم وتَعزيزِ إشعارِ أَهلِهِ بِهُوِيَّتِهِم، أَعني أَهلَ العربيَّةِ، فهَل نَجَحَ هؤُلاءِ في المُهِمَّةِ المَنوطَةِ بِهِم، وهَل أَفلَحوا في إبلاغِ الرِّسالَةِ المَوكولَةِ إليهِم؟ هذا ما يَسعَى البَحثُ الحالِيُّ إلى الإجابَةِ عنهُ وإماطَةِ اللِثامِ عَمّا يَكتَنِفُ جَوانِبَهُ، مُتَّخِذًا مِن الطَّرائفِ ومَروِيّاتِها في بُطونِ الكُتُبِ مادَّةً لِلتَّحليلِ وحالَةً لِلدَّرْسِ.

فمادَّةُ بَحثي هذا شَريحَةٌ مِن شَرائحِ المُجتَمَعِ كانَ لَها حُضورُها الواضِحُ في القُرونِ القليلَةِ الأُولَى بَعدَ ظُهورِ الإسلامِ لكِنْ سرعانَ ما أَخَذَ ضَوؤُها يَخفُتُ ونَجمُها يَأفُلُ، وبَدَأَ دَورُها يتراجَعُ في المُجتَمَعِ وبَدَأَتِ المادَّةُ التي تُعنَى بِها وتُشغَلُ تَختَفي مِن واقِعِ النّاسِ وحياتِهِم اليوميَّةِ. وما تِلكَ الشَّريحَةُ إلّا شَريحَةُ اللُغَويِّينَ والنَّحويِّينَ، وما مادَّتُهُم التي يُعنَونَ بِها ويُشغَلونَ سِوَى العربيَّةِ بِأَلفاظِها وتراكيبِها. وقَد صاحَبَ تَراجُعَ دَورِ كُلٍّ مِن اللُغَويِّينَ والنَّحويِّينَ في المُجتَمَعِ ظُهورُ الطَّرائفِ المُعَبِّرَةِ عَن مَناحٍ شَتّى في سُلوكِهِم والكاشِفَةِ عن الصُّورَةِ التي تَكَوَّنَتْ عنهُم في مُخَيِّلَةِ المُحيطِينَ بِهِم والمُتَعاطِينَ مَعَهُم في المُجتَمَعِ، وهيَ طَرائفُ تَشي بِمَدَى ابتِعادِ هاتَيْنِ الطّائفَتَيْنِ الكَبيرَتَيْنِ عَن شَواغِلِ النّاسِ واهتِماماتِهِم وعَدَمِ قُدرَتِهِما على التَّواصُلِ الفَعّالِ مَعَ أَفرادِ مُجتَمَعاتِهِما، فَضلًا

ISSN: 1112-4210
EISSN: 2588-2139

عَن الإسهامِ المُثمِرِ في تَنميَةِ اللُّغَةِ التَّواصُلِيَّةِ والوَفاءِ بِمُتَطلَّباتِها المُتَزايِدَةِ بِتَزايُدِ تَعَقُّدِ الحياةِ ومُسايَرَةِ مُقتَضَياتِها المُتَجَدِّدَةِ بِتَجَدُّدِ تَطَوُّراتِها.

ولَمّا كانَتِ المُهِمَّةُ الأُولَى التي يُفتَرَضُ أَن يَنهَضَ بِها اللُّغَويُّونَ والنَّحويُّونَ هيَ إمدادَ أَبناءِ مُجتَمَعاتِهِم بِمادَّةِ التَّواصُلِ وإقدارَهُم على حِيازَةِ القَدْرِ المَقبولِ مِنها الذي يُمَكِّنُهُم مِن التَّعبيرِ الإيجابيِّ عن حاجاتِهِم وأَغراضِهِم، كانَ الإخفاقُ في ذلكَ يَعني إخفاقًا في الاضطِلاعِ بِالمُهِمَّةِ المَنوطَةِ بِهِم وسَبَبًا في زَوالِ احتِياجِ النّاسِ إليهِم وتَسَبُّبًا مِن ثَمَّ في انهِيارِ اللُّغَةِ بِأَلفاظِها وتراكيبِها على أَلسِنَةِ النّاسِ والتِجائِهِم إلى العامِّيَّةِ في ظِلِّ غِيابِ البَديلِ مِن اللُّغَةِ الفَصيحَةِ، وفي ذلكَ خَسارَةٌ أَيَّةُ خَسارَةٍ؛ ذلكَ بِأَنَّهُ مِرقاةٌ إلى غِيابِ مُقَوِّمٍ أَساسِيٍّ مِن مُقَوِّماتِ الهُوِيَّةِ هوَ اللُّغَةُ، ومَنزِلَةٌ خَطيرَةٌ مِن مَنازِلِ التَّرَدِّي الحَضارِيِّ بِفَقْدِ أَداةِ الإبداعِ القَوليِّ الرّاقي والفَنِّ الكَلامِيِّ الرَّفيعِ، فَضلًا عن التَّسبُّبِ في تَعَثُّرِ فَهمِ النّاسِ لِكِتابِ رَبِّهِم المُعجِزِ وتَذَوُّقِهِم لِحَلاوَةِ أَلفاظِهِ وطَلاوَةِ مَعانيهِ.

لِكُلِّ ذلكَ، ارتأَيْتُ أَن تَكونَ لي سِياحَةٌ في الطَّرائفِ التي تتناولُ مُختَلِفَ جَوانبِ حياتِهِم العلميَّةِ والعمليَّةِ والتي تَكشِفُ بِوُضوحٍ وجَلاءٍ عَن تَصَوُّراتِ النّاسِ لَهُم وما رَشَحَ مِنها لِيُكَوِّنَ صُورَةً تَقبَعُ في الضَّميرِ الجَمعيِّ وتَكمُنُ في اللاشُعورِ المُشتَرَكِ، غَيرَ مُبتَغٍ بِذلكَ التَّهوينَ مِن شَأنِ ما قَدَّمَهُ أَفرادُ هذهِ الفِئَةِ مِن جُهودٍ وأَكَدُّوا أَبدانَهُم وأَكَلُّوا أَعيُنَهُم وأَفنَوا أَعمارَهُم في سبيلِهِ، بيدَ أَنَّ الصُّورَةَ القاتِمَةَ التي تُظهِرُهُم عليها الطَّرائفُ التي وَقَفْتُ عليها تَجعَلُ كُلَّ تلكَ الجهودِ في مَوقِفٍ لا يُحسَدُ عليهِ أَصحابُها، لأَنَّ المُهِمَّ هوَ الحَصيلَةُ النِّهائِيَّةُ لِتلكَ الجُهودِ وإثمارُها عبرَ القُرونِ، فإذا تَأَمَّلْنا ما عليهِ العربيَّةُ الفَصيحَةُ الآنَ وما آلَ إليهِ أَمرُها بَعدَ قُرونٍ يَسيرَةٍ تَلَتْ نُزولَ القُرآنِ، عَلِمْنا مِقدارَ ما على أَهلِها المَعنِيِّينَ بِها مِن واجِبٍ ثَقيلٍ يَنبَغي أَن يَنهَضوا بِهِ لِيُغَيِّروا واقِعَ العربيَّةِ المُؤلِمَ على أَلسِنَةِ

النّاسِ ولِيُزيلوا مِن ثَمَّ الصُّورَةَ المُؤلِمَةَ التي رُسِمَتْ لَهُم في الذّاكرَةِ الجَمعيَّةِ للمُجتَمَعاتِ العربيَّةِ عبرَ العُصورِ.

وسأَسيرُ في بَحثي هذا على تَقسيمِهِ على مُقَدِّمَةٍ تُبَيِّنُ أَهمِّيَّةَ الموضوعِ وطَرافَتَهُ؛ فتَمهيدٍ يُوضِحُ دَلالاتِ المُصطَلَحاتِ الثَّلاثَةِ المُتَداخِلَةِ التي وَرَدَتْ في عُنوانِ البَحثِ نَصًّا أَو اشتِقاقًا والفُروقَ بَينَها، وهيَ: العَرَبِيَّةُ، واللُّغَةُ، والنَّحوُ؛ فمَبحَثٍ أَوَّلَ أُسَلِّطُ فيهِ الضَّوءَ عَلى الحالِ التي آلَتْ إلَيها عُلومُ العَرَبيَّةِ عَلى يَدِ أَهلِها حَتّى في عُصورِ ازدِهارِها النِّسبِيِّ، وعُزلَتِها عَن خَواصِّ المُشتَغِلِينَ بِها، مِن خِلالِ عَرضِ بِضْعِ صُوَرٍ تُظهِرُ مَوقِفَ بَعضِ المُشتَغِلِينَ بِالعَربيَّةِ مِنها، وبَرَمَهُم بِها وشَكواهُم عَدَمَ القُدرَةِ عَلى فَهمِها؛ فمَبحَثٍ ثانٍ يَتَناوَلُ الطَّرائفَ المُتعلِّقَةَ بِاللُّغَوِيِّينَ وما تَكشِفُ عنهُ مِن مَواقِفَ لعامَّةِ النّاسِ مِنهُم وأَفكارٍ كَوَّنوها عنهُم، والطَّرائفَ المُتَعلِّقَةَ بِالنَّحوِيِّينَ وما تَنُمُّ عليهِ مِن ازدِراءِ النّاسِ لَهُم وسُخريتِهِم مِنهُم لِعَدَمِ قُدرَتِهِم على تَقديمِ بضاعتِهِم على نَحوٍ مُقْنِعٍ ولإخفاقِهِم في التَّواصُلِ معَ أَبناءِ مُجتَمعاتِهِم؛ فخاتِمَةٍ أُجمِلُ فيها أَهَمَّ ما تَوَصَّلَ إليهِ البَحثُ مِن نَتائجَ؛ فمَسرَدٍ لِلمَصادِرِ والمَراجِعِ المُستَعملَةِ. وعلى اللهِ تَوَكُّلي، وهو حَسْبي، وإليهِ مَآبي.

<u>التَّمهيد</u>: العَرَبِيَّةُ، واللُّغَةُ، والنَّحوُ – التَّداخُلُ والتَّبايُنُ:

كَثيرًا مّا تَرِدُ مُصطَلَحاتُ ***العَرَبِيَّة*** و***اللُّغَة*** و***النَّحو*** في كُتُبِ أَهلِ العِلمِ مُتَداخِلَةَ الدَّلالاتِ، فتَتَبادَلُ المَواضِعَ مِن غَيرِ التِفاتٍ إلى الفُروقِ بَينَها، فلا بُدَّ قَبلَ البَدءِ بِعَرضِ صُوَرِ أَهلِ العَرَبِيَّةِ واللُّغَةِ والنَّحوِ في المُتَخَيَّلِ الجَمعِيِّ مِن بَيانِ الفُروقِ الاصطِلاحِيَّةِ بينَ هذهِ المُصطَلَحاتِ الثَّلاثَةِ.

فأَمّا مُصطَلَحُ ***العَرَبِيَّة*** فقَد كانَ النّاسُ يُطلِقونَهُ عَلى لُغَةِ البَوادي التي صِيغَ بِها الشِّعرُ ونَزَلَ بِها القُرآنُ، ويُرى ذلِكَ في ما نُقِلَ عَن عُمَرَ بنِ الخَطّابِ

رَضِيَ اللهُ عَنهُ مِن أَنَّهُ قالَ: "تَعَلَّموا العَرَبِيَّةَ؛ فإنَّها تُثَبِّتُ العَقلَ، وتَزيدُ في المُروءَةِ"[1]. ولِما تَحمِلُهُ هذهِ الكلمَةُ مِن دلالَةٍ عامَّةٍ سَهُلَ أَن تَكتَسِبَ مَعنًى اصطِلاحِيًّا يُطلَقُ عَلى دِراسَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وما تَشتَمِلُ عَليهِ مِن ظَواهِرَ مُعجَمِيَّةٍ وصَوتِيَّةٍ وصَرفِيَّةٍ ونَحوِيَّةٍ[2]. ومِن أَوائِلِ النُّصوصِ التي وَصَلَتْ إلينا وهيَ تُشيرُ إلى هذا المَعنى الاصطِلاحِيِّ العامِّ ما قالَهُ أَحَدُهُم لأَبي عَمرِو بنِ العَلاءِ: "أَخبِرْني عَمّا وَضَعْتَ مِمّا سَمَّيْتَهُ عَرَبِيَّةً، أَيَدخُلُ فيها كَلامُ العَرَبِ كُلُّهُ؟"[3]. فبِهذا المَعنى الشّامِلِ لِلمُشتَغِلِينَ بِعُلومِ اللُّغَةِ العربيَّةِ عُمومًا دونَ تَخصيصٍ بِأَحَدِها، يَرِدُ مُصطَلَحُ ***أَهل العَرَبِيَّة*** في بَحثي هذا.

وأَمّا مُصطَلَحُ ***اللُّغَة*** فكانَ يَعني جَمعَ الأَلفاظِ ومَعرِفَةَ دَلالاتِها، وظَلَّ استِعمالُ هذا المُصطَلَحِ بِهذا المَعنَى عِدَّةَ قُرونٍ، وأَصبَحَ ***اللُّغَوِيُّ*** هوَ الباحِثَ في الأَلفاظِ جَمعًا وتَصنيفًا وتَأليفًا[4]؛ فقَد أَطلَقَ مُؤَلِّفو كُتُبِ الطَّبَقاتِ والتَّراجُمِ عَلى الاشتِغالِ بِجَمعِ الأَلفاظِ وبَيانِ مَعانيها مُصطَلَحَ ***اللُّغَة***، وعَلى مَن يَشتَغِلُ بِهذا الجَمعِ مُصطَلَحَ ***اللُّغَوِيّ***[5]. دَليلُ ذلكَ ما ذَكَرَهُ أَبو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ (ت351هـ)

---

[1] - أَبو بَكرِ بنُ الأَنبارِيِّ، إيضاح الوَقفِ والابتِداءِ في كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، تحقيق عبد الرَّحيم الطَّرهونيّ، دار الحديث، القاهرة، د.ط. 1428هـ/2007م، ص 32.

[2] - يُنظَر: محمَّد خير الحلوانيّ، المُفَصَّلُ في تاريخِ النَّحوِ العَرَبِيِّ – الجُزءُ الأَوَّل (قَبلَ سيبَوَيه)، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1399هـ/1979م، ص 12.

[3] - أبو بكر محمَّد بن الحسن بن عبيد الله الزُّبيديّ الأندلسيّ الإشبيليّ، طَبَقاتُ النَّحوِيِّين واللُّغَوِيِّينَ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، الطَّبعةُ الأُولى 1373هـ/1954هـ، ص 34.

[4] - يُنظَر: حاتم صالح الضّامن، عِلمُ اللُّغَة، وزارة التَّعليم العالي والبحث العلميّ، بغداد، د.ط. د.ت.، ص31–32.

[5] - يُنظَر: محمود سليمان ياقوت، مَصادِرُ التُّراثِ النَّحوِيّ، دار المعرفة الجامعيَّة، مصر، د.ط. 2003م، ص 15–16.

عَن ثَلاثَةِ عُلَماءَ عُرِفَ عَنهُم أَنَّهُم وَقَفوا حَيَواتِهِم عَلى جَمعِ أَلفاظِ اللُّغَةِ، هُم أَبو زَيدٍ الأَنصارِيُّ (ت215هـ) وأَبو عُبَيدَةَ مَعمَرُ بنُ المُثَنّى (ت210هـ) والأَصمَعِيُّ (ت216هـ)، إذ قالَ: "وكانَ في هذا العَصرِ ثَلاثَةٌ، هُم أَئمَّةُ النّاسِ في اللُّغَةِ"[1]، ثُمَّ سَمّاهُم.

وأَمّا المَقصودُ بِكَلِمَةِ ***النَّحْو*** فمَعنَيانِ؛ أَحَدُهُما يَشمَلُ مَباحِثَ النَّحوِ والصَّرفِ الاصطِلاحِيَّيْنِ على ما نَعرِفُهُما عليهِ اليَومَ، وهوَ "انتِحاءُ سَمْتِ كَلامِ العَرَبِ في تَصَرُّفِهِ مِن إعرابٍ وغَيرِه، كالتَّثنِيةِ والجَمْعِ والتَّحقيرِ والتَّكسيرِ والإضافةِ والنَّسَبِ والتَّركيبِ وغَيرِ ذلكَ، لِيَلحَقَ مَن لَيسَ مِن أَهلِ اللُّغَةِ العربيَّةِ بِأَهلِها في الفَصاحةِ فيَنطِقَ بها وإن لَم يَكُن مِنهُم"[2]؛ والمَعنَى الآخَرُ لِكلمةِ ***النَّحْو*** يَقتَصِرُ على مَباحِثِ النَّحْوِ الاصطِلاحِيِّ على ما نَعرِفُهُ عليهِ اليَومَ، وهوَ العِلمُ الذي يَدرُسُ اختِلافَ أَواخِرِ الكَلِمِ بِاختِلافِ العَوامِلِ لَفْظًا أَو تَقديرًا[3]. فالنَّحوُ قَد يَنصَرِفُ في بَحثي هذا إلى ما باتَ يُعرَفُ بِعِلمِ الصَّرفِ أَو التَّصريفِ وقَد يَنصَرِفُ إلى النَّحوِ الذي يَقتَصِرُ على العِنايَةِ بِأَواخِرِ الكَلِمِ.

وقَبلَ مُغادَرَةِ هذا المَوضِعِ مِن البَحثِ، لا بُدَّ مِن التَّنبيهِ عَلى أَنَّ مِن أَهلِ العِلمِ مَن لَم يُفَرِّقْ بَينَ فِئَتَي اللُّغَوِيِّينَ والنَّحوِيِّينَ بِما فَرَّقْتُ بِهِ بَينَهُما، كفِعلِ السُّيوطِيِّ (ت911هـ) في كِتابِهِ (بُغيَةُ الوُعاة في طَبَقاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاة)، بَيدَ

[1] - أَبو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ، مَراتِبُ النَّحوِيِّين، تحقيق محمَّد أَبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، بيروت، د.ط. د.ت.، ص 70.

[2] - أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخَصائص، تحقيق محمَّد عليّ النَّجّار، عالَمُ الكُتُب، بيروت، د.ط. د.ت.، ج 1، ص35.

[3] - يُنظَر: أبو البركات الأنباريّ، أَسرارُ العربيَّة، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، د.ط. 1415هـ/1995، ص 10.

أَنِّي آثَرْتُ تَرَسُّمَ آثارِ مَن فَرَّقَ بَينَهُما. وأَوضَحُ مَن رَأَيْتُهُ فَعَلَ ذلكَ عالِمانِ؛ أَحَدُهُما أَبو بَكرٍ الزُّبَيدِيَّ (379هـ) الذي فَصَلَ في طَبَقاتِهِ بَينَ الفِئَتَيْنِ جاعِلًا النَّحوِيِّينَ قِسمَيْنِ أَوَّلُهُما (النَّحوِيُّونَ البَصرِيُّونَ) وثانيهِما (النَّحوِيُّونَ الكوفِيُّونَ)، واللُّغَوِيِّينَ قِسمَيْنِ أَيضًا أَوَّلُهُما (اللُّغَوِيُّونَ البَصرِيُّونَ) وثانيهِما (اللُّغَوِيُّونَ الكوفِيُّونَ)، وخَصَّ فِئَةَ النَّحوِيِّينَ بِقِسمَيْها بِالمُشتَغِلِينَ بِالنَّحوِ عَلى ما مَضى التَّعريفُ بِهِ، وفِئَةَ اللُّغَوِيِّينَ بِرُواةِ أَلفاظِ اللُّغَةِ وجامِعِيها والعُلَماءِ بِغَرِيبِها ومُصَنِّفِي مُعجَماتِها[1]؛ والعالِمُ الآخَرُ هوَ عَبدُ اللَّطيفِ البَغدادِيُّ (ت629هـ) الذي نَقَلَ عنهُ السُّيوطِيُّ تَفريقَهُ بَينَ اللُّغَوِيِّ والنَّحوِيِّ بِأَنَّ اللُّغَوِيَّ يَنقُلُ ما نَطَقَتْ بِهِ العَرَبُ ولا يَتَعَدّاهُ أَمّا النَّحوِيُّ فيتَصَرَّفُ في ما يَنقُلُهُ اللُّغَوِيُّ ويَقيسُ عَلَيهِ، وتَشبيهَهُ لَهُما بِالمُحَدِّثِ والفَقيهِ في أَنَّ المُحَدِّثَ يَنقُلُ الحَديثَ، فيتَلَقّاهُ الفَقيهُ ويَتَصَرَّفُ فيهِ ويَبسُطُ عِلَلَهُ ويَقيسُ عَلَيهِ[2]. فسَأَقصُرُ (اللُّغَوِيِّينَ) في بَحثي هذا إذَن عَلى المُشتَغِلِينَ بِجَمعِ الأَلفاظِ وتَحَرِّيها، دونَ غَيرِ ذلكَ مِن عُلومِ اللُّغَةِ العربيَّةِ الأُخرى.

المَبحَثُ الأَوَّلُ: مَوقِفُ بَعضِ المُشتَغِلِينَ بِالعَرَبِيَّةِ مِمّا آلَتْ إِلَيهِ:

سأَعرِضُ في هذا المَبحَثِ بِضْعَ صُوَرٍ تَكشِفُ عَن حالِ أَهلِ العربيَّةِ في عُصورِ ازدِهارِها النِّسبِيِّ على الأَلسِنَةِ وفي أَسَلاتِ الأَقلامِ، ومَواقِفِ المُتَعَلِّمِينَ والنُّخَبِ العلميَّةِ مِمّا آلَتْ إِلَيهِ حالُها عَلى أَيدي القائمِينَ عَلَيها. وقَد انتَقَيْتُ عَمدًا أَربَعَ صُوَرٍ مُنَوَّعَةً تَتَدَرَّجَ ما بينَ صورَةٍ أُولى تُظهِرُ أَحَدَ أَهلِ

[1] - يُنظَر: الزُّبيديّ، طَبَقاتُ النَّحوِيِّين واللُّغَوِيِّينَ، ص 13–132، و 133–172، و173–205، و207–229.

[2] - يُنظَر: عَبدُ الرَّحمنِ جَلالُ الدِّينِ السُّيوطِيّ، المُزهِرُ في عُلومِ اللُّغَةِ وأَنواعِها، تَحقيق محمَّد أَحمد جاد المولى ومحمَّد أَبو الفَضل إبراهيم وعليّ محمَّد البجّاويّ، دار التُّراث، القاهرة، الطَّبعة الثَّالثة د.ت.، ج 1، ص 59.

العربيَّةِ مِمَّنْ أَفنَوا حيَواتِهِم في سَبيلِها وهوَ لا يَخرُجُ بَعدَ مُدَّةٍ طَويلَةٍ مِن مُدارَسَتِها بِما يُقيمُ بِهِ لِسانَهُ؛ وصورَةٍ ثانيَةٍ يَنتَقِدُ فيها أَحَدُ أَعلامِ النَّحوِ واللُّغَةِ عَلَمًا آخَرَ مُتَّهِمًا إيّاهُ بِأَنَّ كُتُبَهُ مُعَمّاةُ المَعاني مُستَغلقَةُ الدَّلالاتِ؛ وصورَةٍ ثالِثَةٍ تُفصِحُ عَن انتِقادِ أَحَدِ أُمَراءِ البَيانِ في تَأريخِ العربيَّةِ النُّحاةَ ووَسمِهِ لِكُتبِهِم بِالصُّعوبَةِ والعُسرِ؛ وصورَةٍ رابِعَةٍ تَظهَرُ فيها إحدَى شَخصيّاتِ المُجتَمَعِ العلميَّةِ المُهِمَّةِ التي يُشارُ إلى عِلمِها بِالبَنانِ وهيَ حائرَةٌ لا تَعي شَيْئًا مِمّا يَقولُهُ بَعضُ المُشتَغِلِينَ بِعِلمِ التَّصريفِ. فإذا كانَتْ هذهِ هيَ مَواقِفَ صَفوَةِ أَهلِ العِلمِ المُختَصِّينَ بِالعربيَّةِ اختِصاصًا دَقيقًا أَو المُشتَغِلِينَ بِها على نَحوٍ أَو آخَرَ مِن كَثيرٍ مِمّا يُنتِجُهُ أَهلُ العربيَّةِ أَو يَتَحدَّثونَ بِهِ في مَجالسِهِم، فما الذي يُنتَظَرُ مِن عامَّةِ النّاسِ، وما الذي يُتَوَقَّعُ أَن تكونَ عليهِ الصُّورَةُ الجَمعيَّةُ التي تُشَكِّلُها ذاكِرَتُهُم لَهُم عبرَ العُصورِ؟

1. الصُّورَةُ الأُولَى: نَبدَأُ بِالصُّورَةِ الأُولَى التي تُظهِرُ عالِمَ العربيَّةِ الكَبيرَ الحُسَيْنَ بنَ أَحمَدَ بنِ خالَوَيْهِ (ت370هـ) وقَد سَأَلَهُ رَجُلٌ: أُرِيدُ أَن أتعلَّمَ مِن العَرَبيَّةِ ما أُقيمُ بِهِ لِساني. فأَجابَهُ ابنُ خالَوَيْهِ بِقَولِهِ: أَنا مُنْذُ خَمسِينَ سنةً أَتعلَّمُ النَّحْوَ، ما تعلَّمْتُ ما أُقيمُ بِهِ لِساني[1]. وقَد عَلَّقَ الشَّيخُ عليٌّ الطَّنطاوِيُّ على هذهِ الحادِثَةِ بِقَولِهِ: "فأَيُّ فائدةٍ مِن النَّحوِ إذا كانَتْ قِراءتُهُ خَمسِينَ سَنَةً لا تُعَلِّمُ صاحِبَها كيفَ يُقيمُ لِسانَهُ؟ وما الذي يَبقى لِلنَّحوِ إذا لَم يُؤَدِّ إلى هذهِ الغايةِ، وإذا أَصبحَ أَصعَبَ فُنونِ العَربيَّةِ وهو لَم يُوضَعْ إلّا لِتَسهيلِها وتَقريبِها؟ ومَن، لَيتَ شِعري، يَسلُكُ الجادَّةَ لِيخلصَ مِن الوَعرِ ويدنُوَ مِن الغايةِ إذا رَأَى مَن هُوَ أَقوى

[1] - يُنظَر: عبد الرَّحمن بن أبي بكر جلال الدِّين السُّيوطيّ، بُغيَةُ الوُعاة في طَبَقاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاة، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، د.ط. د.ت.، ج 1، ص 529.

مِنهُ وأَجلَدُ قَد سَلَكَها فانتَهَتْ حياتُهُ ولم يَنتَهِ مِنها، وأَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ وهوَ في بَعضِها يُقَلِّبُ حَصباءَها، ويَنبشُ تُربَها، ويَنظُرُ في جَوانِبِها؟"[1].

2. الصُّورَةُ الثّانِيَةُ: طَرَفا الصُّورَةِ الثّانِيَةِ كِلاهُما مِن المُختَصِّينَ بِالعربيَّةِ اختِصاصًا دَقيقًا؛ فالطَّرَفُ المُنتَقِدُ فيهِ هوَ النَّحوِيُّ الجَليلُ أَبو عَلِيٍّ الفارِسِيُّ (ت377هـ)، والطَّرَفُ المُنتَقَدُ فيهِ هوَ النَّحوِيُّ البَلاغِيُّ أَبو الحَسَنِ الرُّمّانِيُّ (ت384هـ)، فقد نَقَلَ أَهلُ التَّراجُمِ والسِّيَرِ عن الفارسيِّ قَولَهُ في الرُّمّانيِّ: "إِن كانَ النَّحْوُ ما يَقُولُهُ الرُّمّانيُّ فَلَيْسَ مَعَنا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِن كانَ النَّحْوُ ما نَقُولُهُ نَحنُ فَلَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ"[2]. وتُظهِرُ هذهِ الرِّوايَةُ عُمقَ الهُوَّةِ التي بَدَأَت تتكوَّنُ بينَ بَعضِ المُنتَسِبِينَ إلى التَّخَصُّصِ النَّحوِيِّ الدَّقيقِ، مُمَثَّلِينَ بِالفارِسِيِّ، وأَصحابِ تَيّارٍ فيهِ، مُمَثَّلِينَ بِالرُّمّانِيِّ، مَزَجوا النَّحوَ بِالمَنطِقِ حَتّى باتَ يَصعُبُ فَهمُهُ عَلى المُبَرّزِينَ فيهِ. ولِذلكَ عَلَّقَ السُّيوطِيُّ عَلى ما قالَهُ الفارِسِيُّ بِقَولِهِ: "النَّحوُ ما يَقولُهُ الفارِسِيُّ؛ ومَتى عَهِدَ النّاسُ أَنَّ النَّحوَ يُمزَجُ بِالمَنطِقِ، وهذِهِ مُؤَلَّفاتُ الخَليلِ وسيبَوَيْهِ ومُعاصِرِيهِما ومَن بَعدَهُما بِدَهرٍ لَم يُعهَدْ فيهِ شَيءٌ مِن ذلكَ؟"[3].

3. الصُّورَةُ الثّالِثَةُ: يَظهَرُ في الصُّورَةِ الثّالِثَةِ طَرَفانِ؛ أَحَدُهُما غَيرُ مُختَصٍّ بِالعربيَّةِ اختِصاصًا دَقيقًا وإِنْ كانَ يَمُتُّ إليها بِصِلَةٍ وَثيقَةٍ ويَرتَبِطُ بِها بِسَبَبٍ مَتينٍ، والآخَرُ عالِمٌ نَحوِيٌّ كَبيرٌ. والشَّخصيَّةُ العِلميَّةُ التي تُمَثِّلُ الطَّرَفَ الأَوَّلَ المُنتَقِدَ هيَ الجاحِظُ (ت255هـ)، أَمّا الشَّخصيَّةُ النَّحويَّةُ التي تُمَثِّلُ الطَّرَفَ الثّانيَ المُنتَقَدَ فهيَ أَبو الحَسَنِ سَعيدُ بنُ مَسعَدَةَ المُلَقَّبُ بِالأَخفَشِ الأَوسَطِ

[1] - عليّ الطَّنطاويّ، فِكَرٌ ومَباحِثُ، دار ابن حزم، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1426هـ/2005م، ص 17.
[2] - السُّيوطِيّ، بُغيَةُ الوُعاة، ج 2، ص 181.
[3] - السُّيوطِيّ، بُغيَةُ الوُعاة، ج 2، ص 181.

(ت215هـ). إذ نَقَلَ الجاحِظُ مُحاوَرَةً دارَتْ بينَهُ وبينَ الأَخفَشِ، مُفادُها أَنَّهُ قالَ لأَبي الحَسَنِ الأَخفَشِ: أَنتَ أَعلَمُ النّاسِ بِالنَّحوِ، فلِمَ لا تَجعَلُ كُتُبَكَ مفهومةً كُلَّها، وما بالُنا نَفهَمُ بَعضَها ولا نَفهَمُ أَكثرَها، وما بالُكَ تُقَدِّمُ بَعضَ العَويصِ وتُؤَخِّرُ بَعضَ المَفهوم؟ فأَجابَ الأَخفَشُ بِقَولِهِ: أَنا رَجُلٌ لَم أَضَعْ كُتُبي هذِهِ لِلّهِ، ولَيسَتْ هيَ مِن كُتُبِ الدِّينِ، ولَو وَضَعْتُها هذا الوَضعَ الذي تَدعوني إليهِ لَقَلَّتْ حاجاتُهُم إليَّ فيها. وإنَّما كانَتْ غايَتي المَنَالَةَ، فأَنا أَضَعُ بَعضَها هذا الوَضعَ المَفهومَ لِتَدعُوَهُم حَلاوةُ ما فَهِموا إلى التِماسِ فَهْمِ ما لَم يَفهَموا. وإنَّما قَد كَسَبْتُ في هذا التَّدبيرِ إذ كُنْتُ إلى التَّكَسُّبِ ذَهَبْتُ[1]. فهذا الجاحِظُ، وهوَ أَميرُ البَيانِ العربيِّ على مَرِّ العُصورِ، يَعتِبُ على الأَخفَشِ الأَوسَطِ صُعوبَةَ فَهمِ كُتُبِهِ واستِعصاءَها عليهِ، فلَيْتَ شِعرِي ما الذي سيَفهَمُهُ العامَّةُ مِنها وما الذي يَرجونَهُ مِن نَفعِها؟ على أَنَّ الخَطيرَ في هذهِ الرِّوايَةِ ما صَرَّحَ بِهِ الأَخفَشُ مِن أَنَّهُ لَم يَقصِدْ بِما وَضَعَهُ مِن كُتُبِ النَّحوِ وَجهَ اللهِ، بَل كانَ مُبتَغاهُ بِها التَّكَسُّبَ واجتِلابَ الأَموالِ، فلَو وَضَعَها سهلَةً مَيسورَةَ التَّناوُلِ دانِيَةَ الجَنَى لانصَرَفَ النّاسُ عنهُ واستَغنَوا بِفَهمِهِم عَن إفهامِهِ لَهُم.

4. الصُّورَةُ الرّابِعَةُ: تُطلِعُنا الصُّورَةُ الرّابِعَةُ على مَوقِفِ بَعضِ المُشتَغِلِينَ بِالعِلمِ والأَدَبِ مِن بَعضِ أَهلِ العربيَّةِ، وهيَ تَقِفُنا على أَنَّ الفَجوَةَ بينَ الطَّرَفَيْنِ أَوسَعُ والبَونَ أَشسَعُ؛ إذ رَوَى أَبو القاسِمِ الزَّجّاجِيُّ (ت337هـ) بِإسنادِهِ قِصَّةَ أَبي مُسلِمٍ مُؤَدِّبِ عَبدِ المَلِكِ بنِ مَروانَ، وكانَ قد نَظَرَ في النَّحوِ، فلمّا أَحدَثَ النّاسُ التَّصريفَ لَم يُحْسِنْهُ وأَنكَرَهُ، فهَجا أَصحابَ النَّحوِ، إذ دَخَلَ أَبو مُسلِمٍ هذا المَسجِدَ فوَجَدَ فيهِ مُعاذَ بنَ مُسلِمٍ الهَرّاءَ النَّحوِيَّ (ت187هـ)، وسَمِعَهُ يُناظِرُ

[1] - يُنظَر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحَيَوان، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط. 1416هـ/1996م، ج 1، ص 92-93.

رَجُلًا في النَّحوِ، فقالَ مُعاذٌ: كَيفَ تَقولُ مِن: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم: 83) يا فاعِلُ افْعَلْ؟ وصِلْها بِـ(يا فاعِلُ افْعَلْ) مِن ﴿إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾ (التَّكوير: 8). فأَجابَهُ الرَّجُلُ بِكَلامٍ لَم يَفهَمْهُ أَبو مُسلِمٍ، فقامَ مِن عِندِهِم، وأَنشأَ يقولُ:

قَدْ كانَ أَخْذُهُمُ في النَّحْوِ يُعْجِبُني حَتّى تَعاطَوا كَلامَ الزِّنْجِ وَالرُّومِ
لَمّا سَمِعْتُ كَلامًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ كَأَنَّهُ زَجَلُ الغِربانِ والبُومِ
تَرَكْتُ نَحْوَهُمُ وَاللهُ يَعْصِمُني مِنَ التَّقَحُّمِ في تِلْكَ الجَراثِيمِ[1]

ولَئِنْ كانَ الزَّجّاجِيُّ قَد ضَنَّ علينا بِما دارَ بينَ مُعاذٍ الهَرّاءِ النَّحويِّ وصاحِبِهِ مِن كَلامٍ نَفَّرَ المُستَمِعَ إليهِما مِن حَديثِهِما فوَلّى لا يَلوي على شَيْءٍ مُتَّهِمًا إيّاهُما بِالتَّحَدُّثِ بِلِسانِ الأَعاجِمِ لِشِدَّةِ بُعدِهِ عمّا يَعهَدُهُ مِن كَلامِ العَربِ والمُتَداوَلِ مِنهُ بينَهُم، لَقَد جادَ بِهِ علينا أَبو بَكرٍ الزُّبَيْدِيُّ، إذ نَقَلَ حَلَّ مُعاذٍ لِتلكَ المُعضِلَةِ، فقالَ: "وجَوابُ المَسأَلَةِ: يا آزُّ أُزَّ، وإنْ شِئْتَ: أُزِّ، وإنْ شِئْتَ: أُزُّ، وإنْ شِئْتَ: أُوزُزْ. فالفَتحُ لأَنَّهُ أَخَفُّ الحَرَكاتِ، والكَسرُ لأَنَّهُ أَحَقُّ بِالتِقاءِ السّاكِنَيْنِ، والضَّمُّ لِلإتباعِ. وكذلكَ: يا وائدُ إدْ، مِثل: يا واعِدُ عِدْ"[2]. وأَترُكُ لِلقارئِ الكَرِيمِ تَخَيُّلَ حالِ أَبي مُسلِمٍ، الذي اختيرَ مِن بينِ الصَّفوَةِ لِيُؤَدِّبَ خَليفَةً مِن الخُلَفاءِ، وهوَ يُنصِتُ إلى مِثلِ هذا الحَديثِ الذي يَدورُ حَولَ كَلامِ اللهِ تعالى الذي أُنزِلَ رَحمَةً لِلعالَمِينَ ويُسِّرَ لِلذِّكرِ، فما كانَ مِن بَعضِ أَهلِ العربيَّةِ إلّا أَن حَوَّلوهُ نِقمَةً على النّاسِ بِامتِحانِهِم إيّاهُم بِأُمورٍ واشتِقاقاتٍ استَخرَجوها بِالمَناقيشِ مِنهُ، فأَضجَروا النّاسَ مِنهُم ومِن حَديثِهِم وجَعَلوهُم يَعتَقِدونَ أَنَّ هذا الكَلامَ السَّهلَ المُمتَنِعَ عَصِيٌّ على الفَهمِ مُتَأَبٍّ على الأَخذِ. وقَد خَلَقَ ذلكَ لَدَى أَهلِ العربيَّةِ

[1] - يُنظَر: أَبو القاسم الزَّجّاجيّ، مَجالِسُ العُلَماء، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، الطَّبعة الثانية 1403هـ/1983م، ص 145.

[2] - الزُّبَيدِيّ، طَبَقاتُ النَّحوِيِّينَ واللُّغَوِيِّين، ص 136.

ISSN: 1112-4210
EISSN: 2588-2139

عُزلَةً نَفسِيَّةً كَبيرَةً، عبَّرَ عَنها أَحَدُهُم تَعبيرًا بَليغًا في بَيْتَيْنِ مِن الشِّعْرِ ساقَهُما القَلَقَشَندِيُّ (ت821هـ) على لِسانِهِ، هُما:

وَصِناعَتي عَرَبِيَّةٌ وَكَأَنَّني ألقَى بِأَكثَرِ ما أَقولُ الرُّوما

فَلِمَنْ أَقولُ؟ وما أَقولُ؟ وأَينَ لي فَأَسيرَ؟ لا بَل أَينَ لي فَأُقيما؟[1]

المَبْحَثُ الثّاني: مَواقِفُ العامَّةِ مِن أَهلِ العربيَّةِ في مِرآةِ طَرائفِ اللُّغَوِيِّينَ والنَّحويِّينَ:

سأَعرِضُ في هذا المَبحَثِ حالاتٍ مُختَلِفَةً قَدَّرْتُ أَنَّها تَكفي لإظهارِ الصُّورَةِ الكُلِّيَّةِ التي اختَزَنَتْها الذّاكِرَةُ الجَمعيَّةُ لِلأُمَّةِ حِيالَ المُشتَغِلِينَ بِالعربيَّةِ عُمومًا واللُّغَوِيِّينَ والنَّحوِيِّينَ مِنهُم خُصوصًا، إذ أَسرُدُ صُوَرًا مُتنَوِّعَةً لِمَواقِفِ العامَّةِ مِن اللُّغَوِيِّينَ والنَّحوِيِّينَ مِن خِلالِ ما تَكشِفُ عنهُ طَرائفُهُم التي ضَمَّتْها كُتُبُ الأَدَبِ ومَجاميعُ النَّوادِرِ، وسأَبدَأُ بِتِلكَ المُتعلِّقَةِ بِاللُّغَوِيِّينَ، ثُمَّ أُثَنِّي بِتِلكَ المُتعلِّقَةِ بِالنَّحوِيِّينَ.

1. طَرائفُ اللُّغَوِيِّينَ:

أ. رَوَى ابنُ خَلِّكانَ (ت681هـ) أَنَّ عيسى بنَ عُمَرَ الثَّقَفِيَّ (ت149) سَقَطَ عَن حِمارٍ لَهُ، فاجتمَعَ عليهِ النّاسُ، فقالَ: ما لَكُم تَكَأكَأْتُم عَلَيَّ تَكَأكُؤَكُم على ذي جِنَّةٍ؟ افرَنقِعوا عَنِّي. ومَعنى كَلامِهِ: ما لَكُم تَجَمَّعْتُم عَلَيَّ تَجَمُّعَكُم على مَجنونٍ؟ انكَشِفوا عَنِّي. ثُمَّ عَلَّقَ ابنُ خَلِّكانَ بِقَولِهِ: "ورأَيْتُ في بَعضِ المَجاميعِ أَنَّهُ كانَ بِهِ ضِيقُ النَّفَسِ، فأَدرَكَهُ يَومًا وهوَ في السُّوقِ، فوقَعَ، ودارَ النّاسُ حَولَهُ يقولونَ: مَصروعٌ مَصروعٌ، فبَينَ قارِئٍ ومُعَوِّذٍ مِن الجانِّ، فلَمّا أَفاقَ مِن غشيَتِهِ نَظَرَ إلى ازدِحامِهِم، فقالَ هذهِ المَقالةَ، فقالَ بعضُ الحاضِرِينَ: إنَّهُ جِنِّيُّهُ يتكَلَّمُ

[1] - يُنظَر: أحمد بن عليّ بن أحمد الفزاريّ القلقشنديّ القاهريّ، صُبْحُ الأَعشَى في صِناعَةِ الإنشا، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ط. د.ت.، ج 1، ص 79.

بِالهندِيَّةِ"[1]. فقد بَلَغَ التَّقَعُّرُ في الكَلامِ لَدَى الثَّقَفِيِّ وتَتَبُّعُهُ وَحشِيَّهُ وتَحَرِّيهِ غَريبَهُ أَنْ ظَنَّ النّاسُ أَنَّ كَلامَهُ الذي نَطَقَ بِهِ كَلامُ جِنِّيٍّ لا كَلامُ إنسِيٍّ، بَل كَلامُ جِنِّيٍّ هِندِيٍّ، بِما يُبعِدُهُ كُلَّ البُعدِ عن الكَلامِ المُتَداوَلِ المَألوفِ في حَياةِ النّاسِ وتَعامُلاتِهِم اليَوميَّةِ. وكُلَّما ازدادَ ابتِعادُ النّاسِ عَن الفُصحَى ازدادَ تَأَكُّدُ وُجوبِ ابتِعادِ أَهلِها عن التَّقَعُّرِ فيها، ومِصداقُ ذلكَ ما ذَكَرَهُ ابنُ قُتَيْبَةَ (ت276هـ)، بَعدَ أَن أَورَدَ أَحَدَ مَواقِفِ الثَّقَفِيِّ التَّقَعُّرِيَّةِ، إذ قالَ: "فهذا وأَشباهُهُ كانَ يُستَثقَلُ والأَدَبُ غَضٌّ والزَّمانُ زَمانٌ وأَهلُهُ يتحلَّونَ فيهِ بِالفَصاحَةِ ويتنافسونَ في العِلمِ ويرَونَهُ تِلوَ المِقدارِ في دَرَكِ ما يَطلُبونَ وبُلوغِ ما يُؤَمِّلونَ، فكيفَ بِهِ اليَومَ معَ انقِلابِ الحالِ؟"[2].

ب. رَوَى ابنُ الجَوزِيِّ (ت597هـ) أَنَّ أَحَدَ المُولَعِينَ بِالتَّأَنُّقِ في حَديثِهِ والسَّجْعِ فيهِ وتتبُّعِ غَريبِ اللَفظِ في كِلامِهِ دخلَ سُوقَ النَّخّاسِينَ في الكوفةِ، فجَلَسَ إلى نَخّاسٍ فقالَ: يا نَخّاسُ، اطلُبْ لي حِمارًا لا بِالصَّغيرِ المُحتَقَرِ ولا بِالكَبيرِ المُشتَهرِ، إن أَقلَلْتَ عَلَفَهُ صَبَرَ وإن أَكثَرْتَ عَلَفَهُ شَكَرَ، لا يَدخُلُ تَحتَ البَواري ولا يُزاحِمُ بي السَّواري، إذا خَلا في الطَّريقِ تَدَفَّقَ وإذا أَكثَرَ الزِّحامُ تَرَفَّقَ. فقالَ لَهُ النَّخّاسُ بَعدَ أَن نَظَرَ إليهِ ساعةً: دَعْني، فإذا مَسَخَ اللهُ القاضِيَ حِمارًا اشتَرَيْتُهُ لكَ[3]. وأَوَّلُ ما يَجبَهُنا في هذهِ الطُّرفَةِ أَنَّ ابنَ الجَوزِيِّ أَورَدَها، وأَورَدَ كَثيرًا

---

[1] - أبو العبّاس شمس الدِّين أحمد بن محمَّد بن أبي بكر بن خلِّكان، وَفَياتُ الأَعيان وأَنباءُ أَبناءِ الزَّمان، تحقيق إحسان عبّاس، دارُ الثَّقافة، بيروت، د.ط. د.ت.، ج 3، ص 487.

[2] - أَبو مُحَمَّدٍ عَبدُ اللهِ بنُ مُسلِمِ ابنُ قُتَيْبَةَ، أَدَبُ الكاتِب، تحقيق محمَّد الدّالي، مؤسَّسةُ الرِّسالة، بيروت، الطَّبعة الثّانية 1405هـ/1985م، ص 16.

[3] - يُنظَر: أبو الفرج جَمال الدِّين عبد الرَّحمن بن عليٍّ بن محمَّدٍ الجوزيّ، أَخبارُ الحَمْقَى والمُغَفَّلِين، تحقيق عبد الأَمير مهنا، دار الفكر اللبنانيّ، بيروت، الطبعة الأُولى 1410هـ/1990م، ص 134.

غَيرَها أَيضًا كما سيأتي، في كِتابٍ سَمّاهُ ***أَخبار الحَمقَى والمُغَفَّلِين***، ولِهذا دَلالَتُهُ على أَنَّ الذّاكِرَةَ الجَمعيَّةَ تُصَنِّفُ مَن يتلبَّسونَ بِهذا الكَلامِ في صِنفِ الحَمقَى والمُغَفَّلِينَ، وأَنَّ العامَّةَ تَنظُرُ إلى المُتَعَمِّقِينَ مِن اللُّغَوِيِّينَ مِمَّن يَتَخَيَّرونَ أَلفاظَهُم ويَحرِصونَ على التَّأَنُّقِ فيها على أَنَّهُم مَخلوقونَ مُختلِفونَ عنهُم، يَنُمُّ على هذا المَعنَى ما جاءَ في هذهِ الرِّوايَةِ: "فقالَ لَهُ النَّحّاسُ بَعدَ أَن نَظَرَ إليهِ ساعةً"، فنَظَرُ النَّحّاسِ إلى اللُّغَوِيِّ ساعَةً يُشبِهُ نَظَرَهُ إلى مَخلوقٍ غَريبٍ يَنتَمي إلى جِنسٍ غَيرِ جِنسِ النّاسِ، بِما يَشي بِالغُربَةِ الشُّعورِيَّةِ والنَّفسِيَّةِ التي كانَ يَشعُرُ بِها كُلٌّ مِن العامَّةِ والنُّخبَةِ اللُّغَويَّةِ.

ت. رَوَى الأَبشيهِيُّ (ت850هـ) أَنَّ أَحَدَهُم عادَ لُغَوِيًّا في مَرَضِهِ، فسَأَلَهُ: ما الذي تَشكوهُ؟ قالَ: حُمّى جاسِيَةٌ، نارُها حامِيَةٌ، مِنها الأَعضاءُ واهِيَةٌ والعِظامُ بالِيَةٌ. فقالَ لَهُ: لا شَفاكَ اللهُ بِعافِيَة، ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (الحاقَّة: 27)[1]. فهذا أَحَدُ المُغرَمِينَ بِتَتَبُّعِ الغريبِ والتَّأَنُّقِ في الحَديثِ وتَحَرِّي السَّجعِ في الكَلامِ، لا يُمَيِّزُ مَقامًا مِن مَقامٍ، ولا يُفَرِّقُ بينَ أَوانِ الكَلامِ البَليغِ المُتَطَلِّبِ لِلتَّزيينِ والتَّنميقِ ووَقتِ التَّبَسُّطِ في الحَديثِ والتَّخَفُّفِ مِن مُؤَنِهِ التَّزويقيَّةِ، فما الحُمقُ وما الغَفلَةُ إن لَم يَكونا ذلكَ؟

2. طَرائفُ النَّحْوِيِّينَ:

أ. رَوَى ابنُ الجَوزِيِّ عن أَحَدِ المُولَعِينَ بِالنَّحوِ أَنَّهُ دَخَلَ على رَجُلٍ بِالبصرةِ وهوَ يَجودُ بِنَفسِهِ، فقالَ لَهُ: يا فُلانُ، قُل: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإن شِئْتَ فقُل: لا إلهَ إلّا

[1] - يُنظَر: أَبو الفتح شهاب الدِّين محمَّد بن أحمد الأبشيهيّ، المُستَطرَف في كُلِّ فَنٍّ مُستَظرَف، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ط. 1406هـ/1986م، ص 476.

اللهَ، والأُولَى أَحَبُّ إلى سيبَوَيْهِ. قالَ الرّاوي: "سَمِعْتُم ابنَ الفاعِلَةِ؟ يَعرِضُ أَقوالَ النَّحويِّينَ على رَجُلٍ يَموتُ"[1]. فالطُّرفَةُ هُنا قائمَةٌ على المُفارَقَةِ بينَ رَجُلَيْنِ؛ أَحدُهُما خَلِيُّ البَدَنِ لَم يَأبَهْ لِلمَقامِ فأَساءَ المَقالَ، إذ عَرَضَ مَسأَلَةً نَحويَّةً على رَجُلٍ يَموتُ؛ والآخَرُ شَجِيٌّ يَلفِظُ أَنفاسَهُ الأَخيرَةَ يُخَيَّرُ في الأَخذِ بِأَحَدِ وَجهَيْنِ إعرابيَّيْنِ؛ أَحَدُهُما أَقوَى عندَ شَيخِ النَّحويِّينَ سيبَوَيْهِ (ت180هـ) في النُّطقِ بِكلمَةِ التَّوحيدِ، وهوَ رَفعُ لَفظِ الجَلالَةِ (الله) على البَدَلِيَّةِ مِن (لا) النّافيَةِ لِلجِنسِ واسمِها، لأَنَّهُما في تَأويلِ الابتِداءِ؛ والآخَرُ هوَ نَصبُ لَفظِ الجَلالَةِ، فتَكونُ (إلّا) بِمَعنَى (أَستَثني)، ويُعرَبُ لَفظُ الجَلالَةِ مُستَثنًى مَنصوبًا. وصَدَقَ المَثَلُ العربيُّ القَديمُ: وَيْلٌ لِلشَّجِي مِن الخَلِيِّ[2].

ب. أَورَدَ السُّيوطِيُّ أَنَّ أَبا حاتِمٍ السِّجستانيَّ (ت255هـ) دخَلَ بَغْدادَ، فَسُئِلَ عَن قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ (التَّحريم: 6): ما يُقالُ مِنهُ لِلواحِدِ؟ فَقالَ: قِ. فقيلَ لَهُ: فما يُقالُ مِنهُ لِلاثنَيْنِ؟ فَقالَ: قِيا. فقيلَ لَهُ: فما يُقالُ مِنهُ لِلجَمْعِ؟ فقالَ: قُوا. فقيلَ لَهُ: فاجْمَعْ لَنا الثَّلاثَةَ. فقالَ: قِ، قِيا، قُوا. قالَ: وكانَ في ناحيَةِ المَسْجِدِ رَجُلٌ جالِسٌ، فَقالَ لأَحَدِهِم: احتَفِظْ بِثِيابي حَتّى أَجيءَ، وَمضَى إلى صاحِبِ الشُّرطَةِ، وقالَ: إنِّي ظَفَرْتُ بِقَومٍ زَنادِقَةٍ يَقرَؤُونَ القُرْآنَ على صِياحِ الدِّيكِ. قالَ: فَما شَعَرْنا حَتّى هَجَمَ علينا الأَعوانُ والشُّرطةُ، فأَخَذونا وأَحضَرونا إلى مَجْلِسِ صاحِبِ الشُّرطةِ، فسَأَلَنا، فتقَدَّمْتُ إلَيْهِ وأَعلَمْتُهُ بِالْخَبَرِ، وقَد اجْتَمَعَ خَلقٌ مِن

---

[1] - ابنُ الجَوزِيّ، أَخبارُ الحَمْقَى والمُغَفَّلِين، ص 128.

[2] - يُنظَر: عبد الله بن حمد الدّايل، مِن النُّكَتِ اللُّغَويَّة، مكتبة التَّوبة، الرِّياض، الطَّبعة الأُولى 1422هـ/2002م، ص 16-17؛ وأبو بكرٍ محمَّد بن القاسم بن محمَّد الأنباريّ، الزّاهِرُ في مَعاني كَلِماتِ النّاس، تحقيق حاتم صالح الضّامن، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأُولى 1412هـ/1992م، ج 1، ص 491.

خَلقِ اللهِ يَنظُرُونَ ما يَكونُ، فعَنَّفَني وعَذَلَني، وقالَ: مِثْلُكَ يُطلِقُ لِسانَهُ عِندَ العامَّةِ بِمِثلِ هذا؟ وعَمَدَ إلى أَصْحابي فضَرَبَهُم عَشَرَةً عَشَرَةً، وقالَ: لا تَعودوا إلى مِثلِ هذا[1]. يتبيَّنُ مِن النَّصِّ السّابِقِ أَنَّ لُبَّ الطُّرفَةِ هوَ الصِّلَةُ الواضِحَةُ بينَ صَوتِ الدِّيكِ وتَصريفاتِ الفِعلِ (وَقَى)، فالذي يَقولُ: قِ، قِيا، قُوا، على نَحوٍ مُتَتابِعٍ وبِنَفَسٍ واحِدٍ هوَ كَمَن يُقَلِّدُ صَوتَ الدِّيكِ[2]؛ ذلكَ بِأَنَّ صِياغَةَ فِعلِ الأَمرِ مِن اللَّفيفِ المَفروقِ، أَي الذي أَوَّلُهُ وآخِرُهُ حَرفُ عِلَّةٍ، إنَّما تَكونُ بِحَذفِ أَوَّلِهِ لِلإعلالِ وآخِرِهِ لِبِنائِهِ عَلى حَذفِ حَرفِ العِلَّةِ وتَعويضِهِ بِكَسرَةٍ[3]، فإذا جُمِعَ ما لِلمُفرَدِ والمُثَنّى والجَمعِ مِنهُ في اللَّفظِ صارَ أَشبَهَ شَيءٍ بِصِياحِ الدِّيكِ[4]. ويَلفِتُ النَّظَرَ في هذهِ الطُّرفَةِ قَولُ صاحبِ الشُّرطةِ لأَبي حاتِمٍ السِّجستانيِّ: مِثْلُكَ يُطلِقُ لِسانَهُ عِندَ العامَّةِ بِمِثلِ هذا؟ فهذا الرَّجُلُ كانَ أَكثَرَ حَصافَةً وحِكمَةً مِن أَهلِ النَّحوِ والتَّصريفِ الذينَ لَم يَعُوا خَطَرَ عَرضِ بِضاعتِهِم على هذا النَّحوِ الهَزليِّ أَمامَ العامَّةِ، ولا سِيَّما في بيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ وفي آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ؛ إذ إنَّ في كلِّ ذلكَ فِتنَةً مُرَكَّبَةً، أَحَدُ شِقَّيْها تَنفيرُ العامَّةِ عَن لُغَتِهِم الفَصيحَةِ، والشِّقُّ الآخَرُ اتِّخاذُ القُرآنِ أَمامَهُم مَجالًا لِلاختِباراتِ التَّصريفِيَّةِ والأَلغازِ النَّحويَّةِ، ولا شَكَّ في أَنَّ إبداءَ ذلكَ أَمامَ العامَّةِ فيهِ مِن خَطَرِ صَرفِهِم عن كِتابِ رَبِّهِم ما فيهِ.

---

[1] - يُنظَر: السُّيوطِيّ، بُغيَةُ الوُعاة، ج 1، ص 606.

[2] - يُنظَر: الدّايل، مِن النُّكَتِ اللُّغويَّة، ص 59.

[3] - يُنظَر: عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدٍ الهرويّ، فِعلُ الأَمرِ وكَيفِيَّةُ بِنائِه، تحقيق أَحمد محمَّد عبد المنعم، دار البيان، القاهرة، الطَّبعةُ الأُولى 1995م، ص 35-37.

[4] - يُنظَر: السَّيِّد خضر، طَرائفُ ونَوادِرُ مِن سِيَرِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاة، دار الهدى للكتاب، مصر، الطَّبعة الأُولى 1418هـ/1998م، ص 41.

فمِن أَجلِ ذلكَ قالَ ابنُ الجَوزِيِّ: "قَد تَكلَّمَ قَومٌ مِن النَّحويِّينَ بِالإعرابِ مَعَ العَوامِّ، فكانَ ذلكَ مِن جِنسِ التَّغفيلِ وإن كانَ صَوابًا"؛ إذ "لا يَنبَغي أَن يُكَلَّمَ كُلُّ قَومٍ إلّا بِما يَفهَمونَ. قالَ ابنُ عَقيلٍ: كانَ شَيخُنا أَبو القاسمِ بنُ برهانٍ الأَسَدِيُّ يقولُ لأَصحابِهِ: إيّاكُم والنَّحوَ بَينَ العامَّةِ؛ فإنَّهُ كاللَحنِ بَينَ الخاصَّةِ"[1].

ت. ذَكَرَ الزَّمَخشَرِيُّ (ت538هـ) أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ فَقيهًا مُولَعًا بِالنَّحوِ، فقالَ: ما تَقولُ في رَجُلٍ ماتَ وتَرَكَ أَبيهِ وأَخيهِ؟ فقالَ: تَرَكَ أَباهُ وأَخاهُ. فقالَ: فما لأَخاهُ وما لأَباهُ؟ فقالَ: فما لأَخيهِ وما لأَبيهِ؟ فقالَ الرَّجُلُ: أَراكَ كُلَّما طاوَعْتُكَ خالَفْتَني[2]. فهذهِ الطُّرفَةُ تُظهِرُ عَدَمَ قُدرَةِ الفَقيهِ النَّحويِّ على تَخَيُّرِ الوَقتِ المُناسِبِ لِعَرضِ سِلعَتِهِ على النّاسِ؛ فهذا السّائلُ المَلهوفُ أَبعَدُ ما يَكونُ عَن تَقَبُّلِ المَعلوماتِ النَّحويَّةِ في وَضعِهِ الذي هوَ فيهِ، لِذلكَ نَراهُ يَضيقُ ذَرعًا بِهذا الذي جاءَهُ لِمَسأَلَةٍ تُهِمُّهُ فإذا بِهِ يُطَوِّحُ بِهِ ويَأخُذُهُ إلى عالَمٍ آخَرَ بَعيدٍ كُلَّ البُعدِ عَمّا يَشغَلُهُ ويُهِمُّهُ.

فلِكُلِّ ما سَبَقَ، ولِكَثيرٍ غَيرِهِ يَضيقُ البَحثُ الحالِيُّ عَن استيعابِهِ، نَحنُ أَحوَجُ ما نَكونُ اليَومَ إلى أَمثالِ أَبي عَمْرِو بنِ العَلاءِ (ت154هـ) حَصافَةً وبُعْدَ نَظَرٍ وحُسنَ تَقديرٍ لِعاقِبَةِ التَّكَلُّمِ بِغَيرِ ما اعتادَتْهُ البيئةُ المُتَكَلَّمُ فيها؛ فقَد حُكِيَ أَنَّهُ قَصَدَهُ طالِبٌ لِيَقرأَ عَلَيهِ فصادَفَهُ وهوَ معَ العامَّةِ يتكلَّمُ بِكَلامِهِم، ولا يَختَلِفُ مَنطِقُهُ عَن مَنطِقِهِم، فنَقَصَ مِن عَينِهِ؛ لِما استَقَرَّ عِندَ طَبَقَةِ المُشتَغِلينَ بِعُلومِ العربيَّةِ مِن صورَةٍ نَمَطيَّةٍ لِلعالِمِ بِها مِن مُلازَمَتِهِ الفُصحى في جَميعِ الأَحوالِ

[1] - ابنُ الجَوزِيّ، أَخبارُ الحَمْقَى والمُغَفَّلِين، ص 132-133.

[2] - يُنظَر: جار الله الزَّمخشريّ، رَبيعُ الأَبرار ونُصُوصُ الأَخيار، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، الطبعة الأُولى 1412هـ، ج 2، ص21.

والبيئاتِ والأَماكِنِ. ثُمَّ إنَّ هذا الرَّجُلَ لَمّا نَجَزَ شُغلُ أَبي عَمْرٍو مِمّا هوَ فيهِ معَ العامَّةِ تَبِعَهُ إلى أَن دَخَلَ الجامِعَ فأَخَذَ يُخاطِبُ الفُقَهاءَ بِغَيرِ ذلكَ اللِسانِ، فعَظُمَ في عَينِهِ، وعَلِمَ أَنَّهُ كَلَّمَ كُلَّ طائفَةٍ بِما يُناسِبُها مِن الأَلفاظِ[1]؛ تَأَسِّيًا في اللُغَةِ بِما وَرَدَ في الدِّينِ مِن وَصِيَّةٍ حَكيمَةٍ لِلنّاسِ بِأَن يَتَحَرَّوا مِن الكَلامِ ما تُدرِكُهُ فُهومُ المُخاطَبِينَ وما تُطيقُهُ عُقولُهُم، وهيَ: "حَدِّثوا النّاسَ بِما يَعرِفونَ، أَتُحِبُّونَ أَن يُكَذَّبَ اللهُ ورَسولُهُ؟"[2].

ويَبدو أَنَّ شَيخَ النَّحوِ وإمامَ صَنعَتِهِ سيبَوَيْهِ كانَ قَد أَدرَكَ عُمقَ هذهِ النَّصيحَةِ، فتَبَنّاها وتَمَثَّلَها في حَياتِهِ اليَوميَّةِ وواقِعِهِ المَعيشِ، فنَجِدُهُ، وهوَ الإمامُ النَّحوِيُّ الفَذُّ الذي قَد يَأتي في كَلامِهِ المُوَجَّهِ إلى خاصَّةِ أَهلِ العِلمِ بِما يُحارُ في تَفسيرِهِ مِن بَعدِهِ، يَتَبَسَّطُ في حَديثِهِ إلى جارِيَتِهِ بِما لا يُمكِنُ أَن يَدورَ في الخَلَدِ أَن يُحَدِّثَ بِهِ طُلّابَ النَّحوِ وتَلاميذَهُ؛ إذ رُوِيَ عَن الفَرّاءِ (ت207هـ) أَنَّهُ أَتى سيبَوَيْهِ فسَمِعَهُ يَقولُ لِجارِيَةٍ لَهُ: هاتِ ذيك الماء مِن ذاك الجَرَّة، وذَكَرَ الفَرّاءُ أَنَّهُ حينَ سَمِعَ هذا الكَلامَ مِنهُ حَكَمَ عَليهِ بِأَنَّهُ أَعجَمُ لا يُفصِحُ، فخَرَجَ مِن عِندِهِ ولَم يَعُدْ إليهِ[3].

---

[1] - يُنظَر: تاجُ الدِّينِ عَبدُ الوَهّابِ السُّبكِيّ، مُعيدُ النِّعَمِ ومُبيدُ النِّقَمِ، مؤَسَّسة الكتب الثَّقافيَّة، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1407هـ/1986م، ص 72.

[2] - أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ البُخارِيّ، صَحيحُ البُخاريّ – معَ (فَتح الباري شَرح صَحيح البُخاري)، تحقيق عبد العزيز بن عبد اللهِ بن باز، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الثّانية 1418هـ/1997م، ج 1، ص 300، ح127.

[3] - يُنظَر: ياقوت الحَمَوِيُّ الرُّومِيّ، مُعجَمُ الأُدَباءِ – إرشادُ الأَريب إلى مَعرِفَةِ الأَديب، تحقيق الدُّكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1993م، ج 1، ص 56.

وبِصَرفِ النَّظَرِ عَن الطُّعونِ التي وُجِّهَتْ إلى هذهِ القِصَّةِ سَنَدًا ومَتنًا[1]، يُمكِنُ قَبولُها بِوَصفِها مُعَبِّرَةً تَعبيرًا صادِقًا عَن وَعيِ سيبوَيْهِ لِمَنازِلِ الكَلامِ وتَنويعِهِ، فَصاحَةً وتَرَخُّصًا، بِحَسَبِ أَحوالِ المُخاطَبِينَ ومَقاماتِ الخِطابِ، مِصداقًا لِما يَنُصُّ عَلَيهِ العارِفونَ بِأَحوالِ الكَلامِ مِن أَنَّ لِكُلِّ مَقامٍ مَقالًا، وأَنَّ الفَصاحَةَ في مَقامِ التَّبَسُّطِ لا تَقِلُّ خَطَأً عَن التَّبَسُّطِ في مَقامِ الفَصاحَةِ.

والمُفارَقَةُ التي تُظهِرُ أَنَّ ما عُدَّ مَثْلَبَةً في حَقِّ سيبَوَيْهِ مِن التَّبَسُّطِ مَعَ العامَّةِ إنَّما هوَ مَنقَبَةٌ لَهُ أَنَّ راوِيَ القِصَّةِ الفَرّاءَ نَفسَهُ صَدَرَ عنهُ ما يُشْبِهُ ما نَعاهُ هوَ ومُتَعَصِّبو الكوفِيِّينَ عَلى سيبَوَيْهِ؛ فقَد رُوِيَ أَنَّ الفَرّاءَ دَخَلَ عَلى هارونَ الرَّشيدِ (ت194هـ)، فتكلَّمَ بِكلامٍ لَحَنَ فيهِ مَرّاتٍ، فقالَ لَهُ: أَتَلْحَنُ؟ فقالَ الفَرّاءُ: يا أَميرَ المُؤمِنينَ، إنَّ طِباعَ أَهلِ البَدوِ الإعرابُ وطِباعَ أَهلِ الحَضَرِ اللَّحْنُ، فإذا تَحَفَّظْتُ لَم أَلحَنْ، وإذا رَجَعْتُ إلى الطَّبعِ لَحَنْتُ، فاستَحسَنَ الرَّشيدُ قَولَهُ[2].

ولَعَلَّ مَنهَجَ سيبَوَيْهِ في مُخاطَبَةِ العامَّةِ بِما يَفهَمونَهُ هوَ الذي أَشاعَ ذِكرَهُ على أَلسِنَتِهِم وجَعَلَهُ قَريبًا مِنهُم ومِن حَياتِهِم اليَومِيَّةِ بِخِلافِ غَيرِهِ مِن أَهلِ العربيَّةِ الذينَ كانَ جَزاءُ بُعدِهِم عَن العامَّةِ خُمولَ ذِكرِهِم عَلى أَلسِنَتِهِم.

وآيَةُ ذلكَ ما رُوِيَ مِن أَنَّ رَجُلًا قالَ لِسَمّاكٍ بِالبَصرَةِ: بِكَم هذهِ السَّمَكَةُ؟ فقالَ: بِدِرهَمانِ. فضَحِكَ الرَّجُلُ. فقالَ السَّمّاكُ: وَيلَكَ أَنتَ أَحمَقُ، سَمِعْتُ سيبَوَيْهِ يَقولُ: ثَمَنُها دِرهَمانِ[3]. فهذهِ الرِّوايَةُ الطَّريفَةُ الظّاهِرِ الخَطيرَةُ المَضمونِ تُفيدُنا فائدَتَيْنِ. أَمّا الفائدَةُ الأُولى فإثباتُ ما ذَكَرْناهُ مِن قُربِ سيبَوَيْهِ مِن العامَّةِ وعَدَمِ

[1] - يُنظَر: عليّ النَّجدي ناصف، سيبَوَيْهِ إمامُ النُّحاة، عالم الكتب، القاهرة، د.ط. د.ت، ص 125–126.

[2] - يُنظَر: جَمالُ الدّينِ أَبو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ يوسُفَ القِفطِيّ، إنباهُ الرُّواة عَلى أَنباهِ النُّحاة، تحقيق محمَّد أَبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، الطَّبعة الأُولى 1424هـ/2004م، ج 4، ص7–8.

[3] - يُنظَر: ياقوت الحَمَوِيُّ الرُّومِيّ، مُعجَمُ الأُدَباء – إرشادُ الأَريب إلى مَعرِفَةِ الأَديب، ج 5، ص 2127.

ISSN: 1112-4210
EISSN: 2588-2139

ابتِعادِهِ عَنهُم كما ابتَعَدَ غَيرُهُ مِن النَّحوِيِّينَ مِمَّن رُوِيَ عَن أَحَدِهِم أَنَّهُ قالَ لِصاحِبِ بِطِّيخٍ: بِكَم تانِكَ البِطِّيخَتانِ اللَّتانِ بِجَنبِهِما السَّفَرجَلَتانِ ودونَهُما الرُّمّانَتانِ؟ فأَجابَهُ البائعُ، مُتَهَكِّمًا بِهِ وساخِرًا مِن تَقَعُّرِهِ في الكَلامِ، بِكَلامٍ مُسِفٍّ في اللَّحْنِ كَأَنَّهُ رِسالَةٌ مُفادُها أَنَّ هذا المَنهَجَ لا يُؤتي أُكُلَهُ بَل يُنتِجُ نَتائجَ مُضادَّةً، إذ قالَ: بِضَربَتانِ وصَفعَتانِ ولَكمَتانِ، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ﴾ (الرَّحمن: 13)[1]. وأَمّا الفائدَةُ الأُخرى فهيَ أَنَّ سيبَوَيْهِ لَم يَكُن يَدَعُ الإعرابَ تَمامًا مَعَ العامَّةِ، بَل كانَ يُعْرِبُ ويَدَعُ الإعرابَ بِحَسَبِ الحالِ والمَقامِ، وفي ذلكَ تَحقيقٌ لِكِلتا الحُسنَيَيْنِ: حُسنَى كَسْبِ وُدِّ العامَّةِ واستِمالَتِهِم مِن جِهَةٍ، وحُسنَى تَعليمِهِم ما تَمَسُّ الحاجَةُ إليهِ مِن العَرَبيَّةِ مِن جِهَةٍ أُخرى، وهذا مُنتَهى الحِكمَةِ وغايَةُ الفِطنَةِ؛ فلا تَفريطَ ولا إفراطَ، واللهُ الهادي إلى سَواءِ الصِّراطِ.

<u>الخاتِمَةُ</u>: أَوَدُّ بَعدَ ما مَضَى مِن سِياحَةٍ في عالَمِ الطَّرائفِ المتعلِّقَةِ بِاللُّغَويِّينَ والنَّحويِّينَ أَن أُجْمِلَ أَهَمَّ ما تَوَصَّلَ إليهِ البَحثُ في النِّقاطِ الآتِيَةِ:

1. رَسَمَتْ هذهِ الدِّراسَةُ مَلامِحَ الصُّورَةِ التي يَرسُمُها النّاسُ في مُخَيِّلَتِهِم لِمَن يُفتَرَضُ أَن يُسهِمَ نَشاطُهُم في تَنمِيَةِ مُجتَمَعِهِم وتَعزيزِ إشعارِ أَهلِهِ بِهُوِيَّتِهِم، فإذا بِالصُّورَةِ التي تُظهِرُهُم عليها الطَّرائفُ تَأتي بِخِلافِ ذلكَ.

2. صَحِبَ تَراجُعَ دَورِ كُلٍّ مِن اللُّغَويِّينَ والنَّحويِّينَ في المُجتَمَعِ ظُهورُ الطَّرائفِ الكاشِفَةِ عن الصُّورَةِ التي تَكَوَّنَتْ عنهُم في مُخَيِّلَةِ المُحيطِينَ بِهِم في المُجتَمَعِ، وهيَ طَرائفُ تَشي بِمَدَى ابتِعادِ هاتَيْنِ الطّائفَتَيْنِ الكَبيرَتَيْنِ عَن شَواغِلِ النّاسِ

[1] - يُنظَر: أَبو القاسِمِ الحُسَينُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ المُفَضَّلِ المعروفُ بِالرّاغِبِ الأَصفَهانِيِّ، مُحاضَراتُ الأُدَباء ومُحاوَراتُ الشُّعَراءِ والبُلَغاء، تحقيق الدُّكتور عمر الطَّبّاع، دار الأَرقم بن أَبي الأَرقم، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1420هـ، ج 1، ص 87.

واهتِماماتِهِم وعَدَمِ قُدرَتِهِما على التَّواصُلِ الفَعّالِ مَعَ أَفرادِ مُجتَمَعاتِهِما، فَضلًا عَن الإسهامِ المُثمِرِ في تَنميَةِ اللُّغَةِ التَّواصُلِيَّةِ والوَفاءِ بِمُتَطلَّباتِها.

3. أَظهَرَ البَحثُ عُمقَ الهُوَّةِ التي بَدَأَت تتكوَّنُ بينَ بَعضِ المُنتَسِبِينَ إلى التَّخَصُّصِ النَّحوِيِّ الدَّقيقِ وأَصحابِ تَيّارٍ فيهِ أَخَذوا يَمزِجونَ النَّحوَ بِالمَنطِقِ مُبتَعِدِينَ بِهِ بِذلكَ عَن رِسالتِهِ الرَّئيسَةِ وهيَ إقامَةُ اللِسانِ.

4. بَلَغَ التَّقَعُّرُ في الكَلامِ لَدَى بَعضِ اللُّغَوِيِّينَ وتَتَبُّعُهُم وَحشِيَّهُ وتَحَرِّيهِم غَريبَهُ أَنْ ظَنَّ النّاسُ أَنَّ كَلامَهُم الذي يَنطِقونَ بِهِ أَليَقُ بِالجِنِّ لا بِالإنسِ، بَل بِالهُنودِ مِن الجِنِّ لا مِن عَرَبِهِم، بِما يُبعِدُهُ كُلَّ البُعدِ عن الكَلامِ المُتَداوَلِ المَألوفِ في حَياةِ النّاسِ وتَعامُلاتِهِم اليَوميَّةِ.

5. تُصَنِّفُ الذّاكِرَةُ الجَمعيَّةُ مَن يتلبَّسونَ بِالكَلامِ المُتَأَنِّقِ بَينَ العامَّةِ وفي كُلِّ مَكانٍ في صِنفِ الحَمقَى والمُغَفَّلِينَ، وتَنظُرُ العامَّةُ إلى المُتَعَمِّقِينَ مِن اللُّغَوِيِّينَ والنَّحوِيِّينَ مِمَّن يَتَخَيَّرونَ أَلفاظَهُم ويُبالِغونَ في تَحَرِّي الإعرابِ بَينَهُم على أَنَّهُم مَخلوقونَ مِن جِنسٍ آخَرَ.

6. اختارَ البَحثُ أَنَّ خَيرَ مَنهَجٍ لِمُخاطَبَةِ العامَّةِ هوَ الطَّريقَةُ التي اتَّبَعَها إمامُ النَّحوِيِّينَ سيبَوَيْهِ، وهيَ التَّوَسُّطُ بَينَ التَّبَسُّطِ في الحَديثِ إلَيهِم والتَّخَفُّفِ مِن قُيودِ العربيَّةِ أَحيانًا، وإظهارِ ما يَحتاجُ إليهِ الكَلامُ مِن قَواعِدِ العَرَبيَّةِ أَحيانًا أُخرى، بِحَسَبِ الحالِ والمَقامِ، وكانَ الحامِلُ لَهُ على ما فَعَلَهُ في كِلتا الحالَتَيْنِ كَسبَ العامَّةِ وعَدَمَ تَنفيرِهِم والتَّدَرُّجَ في تَعليمِهِم لِئَلّا يَضيقوا ذَرعًا بِالعَربيَّةِ فيَترُكوها جُملَةً واحِدَةً، كما يَحدُثُ في أَيّامِنا هذهِ.

المَصادِرُ والمَراجِع:

– القُرآن الكَريم.

– أبو البركات الأنباريّ (ت577هـ)، أَسرارُ العربيَّة، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، د.ط. 1415هـ/1995م.

– أبو بكرٍ محمَّد بن الحسن بن عبيد الله الزُّبيديّ الأندلسيّ الإشبيليّ (ت379هـ)، طَبَقاتُ النَّحوِيِّين واللُّغَوِيِّينَ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، الطَّبعةُ الأُولى 1373هـ/1954هـ.

– أبو بَكرٍ مُحَمَّد بن القاسم الأنباريّ (ت328هـ)، إيضاحُ الوَقفِ والابتِداءِ في كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، تحقيق عبد الرَّحيم الطَّرهونيّ، دار الحديث، القاهرة، د.ط. 1428هـ/2007م.

– أبو بكرٍ محمَّد بن القاسم بن محمَّد الأَنباريّ (ت328هـ)، الزّاهِرُ في مَعاني كَلِماتِ النّاس، تحقيق حاتم صالح الضّامن، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأُولى 1412هـ/1992م.

– أبو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ (ت351هـ)، مَراتِبُ النَّحوِيِّين، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، بيروت، د.ط. د.ت.

– أبو العبّاس شمس الدِّين أحمد بن محمَّد بن أبي بكر بن خلِّكان (ت681هـ)، وَفَياتُ الأَعيان وأَنباءُ أَبناءِ الزَّمان، تحقيق إحسان عبّاس، دارُ الثَّقافة، بيروت، د.ط. د.ت.

– أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ البُخارِيّ (ت256هـ)، صَحيحُ البُخاريّ – معَ (فَتح الباري شَرح صَحيحِ البُخاري)، تحقيق عبد العزيز بن عبد اللهِ بن باز، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الثّانية 1418هـ/1997م.

– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، الحَيَوان، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط. 1416هـ/1996م.

– أَبو الفتح شهاب الدِّين محمَّد بن أَحمد الأبشيهيّ (ت850هـ)، المُستَطرَف في كُلِّ فَنٍّ مُستَظرَف، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ط. 1406هـ/1986م.

– أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت392هـ)، الخَصائص، تحقيق محمَّد عليّ النَّجّار، عالَمُ الكُتُب، بيروت، د.ط. د.ت.

– أبو الفرج جمال الدِّين عبد الرَّحمن بن عليٍّ بن محمَّدٍ الجوزيّ (ت597هـ)، أَخبارُ الحَمْقَى والمُغَفَّلِين، تحقيق عبد الأَمير مهنا، دار الفكر اللبنانيّ، بيروت، الطبعة الأُولى 1410هـ/1990م.

– أَبو القاسِمِ الحُسَينُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ المُفَضَّلِ المعروفُ بِالرّاغِبِ الأَصفَهانِيِّ (ت502هـ)، مُحاضَراتُ الأُدَباء ومُحاوَراتُ الشُّعَراءِ والبُلَغاء، تحقيق الدُّكتور عمر الطَّبّاع، دار الأَرقم بن أَبي الأَرقم، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1420هـ.

– أَبو القاسم الزَّجّاجيّ (ت337هـ)، مَجالِسُ العُلَماء، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، الطَّبعة الثانية 1403هـ/1983م.

– أَبو مُحَمَّدٍ عَبدُ اللهِ بنُ مُسلِمِ ابنُ قُتَيْبَةَ (ت276هـ)، أَدَبُ الكاتِب، تحقيق محمَّد الدّالي، مؤسَّسةُ الرِّسالة، بيروت، الطَّبعة الثّانية 1405هـ/1985م.

– أحمد بن عليّ بن أحمد الفزاريّ القلقشنديّ القاهريّ (ت821هـ)، صُبْحُ الأَعشَى في صِناعَةِ الإنشا، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ط. د.ت.

– تاجُ الدِّينِ عَبدُ الوَهّابِ السُّبكِيّ (ت771هـ)، مُعيدُ النِّعَم ومُبيدُ النِّقَم، مؤَسَّسة الكتب الثَّقافيَّة، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1407هـ/1986م.

– جار الله الزَّمخشريّ (ت583هـ)، رَبيعُ الأَبرار ونُصُوصُ الأَخيار، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، الطبعة الأُولى 1412هـ.

– جَمالُ الدّينِ أَبو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ يوسُفَ القِفطِيّ (ت646هـ)، إنباهُ الرُّواة عَلى أَنباهِ النُّحاة، تحقيق محمَّد أَبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، الطبعة الأُولى 1424هـ/2004م.

– حاتم صالح الضّامن، عِلمُ اللُّغَة، وزارة التَّعليم العالي والبحث العلميّ، بغداد، د.ط. د.ت.

– السَّيِّد خضر، طَرائفُ ونَوادِرُ مِن سِيَرِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاة، دار الهدى للكتاب، مصر، الطَّبعة الأُولى 1418هـ/1998م.

– عبد الرَّحمن بن أبي بكر جلال الدِّين السُّيوطيّ (ت911هـ):

– بُغيَةُ الوُعاة في طَبَقاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاة، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، د.ط. د.ت.

– المُزهِرُ في عُلومِ اللُّغَةِ وأَنواعِها، تَحقيق محمَّد أَحمد جاد المولى ومحمَّد أَبو الفَضل إبراهيم وعليّ محمَّد البجّاويّ، دار التُّراث، القاهرة، الطَّبعة الثّالثة د.ت.

– عبد الله بن حمد الدّايل، مِن النُّكَتِ اللُّغَويَّة، مكتبة التَّوبة، الرِّياض، الطَّبعة الأُولى 1422هـ/2002م.

– عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدٍ الهروِيّ (ت415هـ)، فِعلُ الأَمرِ وكَيفِيَّةُ بِنائه، تحقيق أَحمد محمَّد عبد المنعم، دار البيان، القاهرة، الطَّبعةُ الأُولى 1995م.

– عليّ الطَّنطاويّ، فِكَرٌ ومَباحِثُ، دار ابن حزم، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1426هـ/2005م.

– عليّ النَّجدي ناصف، سيبَوَيْهِ إمامُ النُّحاة، عالم الكتب، القاهرة، د.ط. د.ت.

– محمَّد خير الحلوانيّ، المُفَصَّلُ في تاريخِ النَّحوِ العَرَبِيِّ – الجُزءُ الأَوَّل (قَبلَ سيبَوَيه)، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، الطَّبعة الأُولى 1399هـ/1979م.

– محمود سليمان ياقوت، مَصادِرُ التُّراثِ النَّحوِيّ، دار المعرفة الجامعيَّة، مصر، د.ط. 2003م.

– ياقوت الحَمَوِيُّ الرُّومِيّ (ت626هـ)، مُعجَمُ الأُدَباءِ – إرشادُ الأَريب إلى مَعرِفَةِ الأَديب، تحقيق الدُّكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، الطبعة الأُولى 1993م.